التحليل النّفسي الفرويدي:

بين بوليتزر وألتوسير/ لاكان

د. إلهام منصور

يعتبر بوليتزر (Politzer) أنّ التّحليل النّفسي أحدث ثورة في تاريخ علم النّفس، ولم يكن، فقط، خطوة تطورية داخل هذا العلم. ولكن قولاً كهذا يتطلّب الاثبات، وهذا لا يتمّ إلاّ بوضع التّحليل النفسي في السّياق التّاريخي لتطوّر علم النّفس عامة حيث تظهر ثوريته وما أتى به من جديد يحدد ويشكّل هذه الثورية. ومحاولة وضع التّحليل النّفسي الفرويدي في هذا السّياق بيّنت لبوليتزر النقاط التي تفرّق والنقاط التي توحّد بينه وبين علم النّفس التّقليدي. ونقاط الالتقاء التي ركّز عليها بوليتزر في دراسته "نقض أسس علم النفس"، هي نفسها النقاط التي ركّز عليها التوسير في مقالته "فرويد ولاكّان". ولكن الاختلاف بين التركيزين كبير جدّاً حيث أنّ الأوّل يرى فيه سقوط التّحليل النفسي في إطار علم النفس التقليدي، بينما الثاني يجعل منه محدد علميته. وهذا الاختلاف يعود، في نظري، إلى اختلاف قراءة كل منهما لفرويد، أي أنّه يعود إلى اختلاف الأدوات النظرية عند كل منهما، فبينما يقرأ بوليتزر فرويد مباشرة مستعيناً بمفاهيم المادية الجدلية، كما يفهمها هو، يقرأه التوسير مداورة من خلال "لاكان" الذي يستعين بمفاهيم جديدة أفرزتها لسانية "سوسور".

يرد بوليتزر علم النفس المعاصر إلى محاولة إخفاء أسطورة طبيعة الإنسان المزدوجة، ولهذا السّبب فهو لا يعطينا فقط الشّكل الخطأ لعلم صحيح، بل ان ما يأتي به كعلم هو خطأ بشكل جذري. وهنا يربط بينه وبين الايديولوجيا البرجوازية التي لم يكن لها أن تكتمل لو لم تجد أسطورتها، وقد وجدتها في "الحياة الداخلية"، موضوع علم النّفس الكلاسيكي؛ وماهية هذه الحياة الدّاخلية هي "التجريد" الذي هو ماهية حضارتنا الحالية. ولهذا التجريد دور مهم في دراسة بوليتزر، لأنّه سيشكّل نقطة الضعف الأساسية عند فرويد، ومحل هبوطه في علم النفس التقليدي. وذلك يعود، بنظره، إلى أنّ التّحليل النّفسي قد غرق في الممارسة ولهذا السّبب "لم يعد له الوقت الكافي ليلاحظ أنّه يخفي في داخله علم النّفس التقليدي الذي مهمّته، هي، بالضبط، إلغاءه" (ص ١٧). أين يظهر هذا التجريد/ الهبوط؟ هل أنه يظهر على صعيد النظرية أم على صعيد الممارسة؟ إن كتاب بوليتزر المذكور سابقاً يظهر لنا أنّ هذا التّجريد/ الهبوط هو على صعيد النظرية، وهنا يبرز الاختلاف بينه وبين التوسير الذي يرى في التجريد عملاً أساسيّاً لتحديد عملية العلم، أيُّ

علم. وهذا الاختلاف ليس الاختلاف الوحيد بينهما ولكنّه يشكّل، في نظري، الاختلاف الأساسي. وهذا ما سنبنيه في سياق المقارنة التالية.

أوّلاً: آلية العودة إلى الأصل

رأينا أنّ بوليتزر يعود إلى علم النفس التقليدي، ومنه ينتقل إلى فرويد، ومن المقارنة بين الاثنين يجد أن أهم اكتشافات فرويد اثنتان: (1) إن للحلم معنى وآلية، (2) عقدة أوديب. إنّه يترك الاكتشاف الثاني إلى نهاية دراسته ويتوقّف عند الحلم وحده لاستخراج أصالة التحليل النفسي، فيتبيّن له أنّ الحلم عند فرويد هو واقعة نفسية، وبالتالي ظاهرة إيجابية. ولكن هذا الاكتشاف الذي أدخل الحلم في صلب الواقعة النفسية العامة، أصبح يستدعي تحديداً جديداً لهذه الواقعة. ممّا دفع بالتّحليل النّفسي إلى البحث دائماً عن فهم الواقعة النفسية بارتباطها بالفرد وليس معزولة عنه. من هنا أصبحت مهمته التأويل وليس فقط الوصف. نرى هنا أن بوليتزر يكتفي بالملاحظة الوصفية، بدون أن يبني عمله هذا على تحديد نظري أو منهجي يسيره، بينما يسلك التوسير طريقاً آخر في العودة إلى فرويد، فيحدّد إطار ومسالك عبوره هذا بدقة منهجية. ربّما عاد هذا الاختلاف إلى الفارق الزمني بين كتابة كل من الدرايتين، حيث أن التّطوّرات التي حدثت بين زمنيهما استوجبت ما قام به التوسير لتحديد الطريقة المنهجية للعودة إلى فرويد وهي تقوم على:

أ)- أبعاد كل حكم مسبق حاكته الايديولوجيا حول التّحليل النّفسي.

ب)- تخليص التّحليل النفسي من التحريفية التي تردّه إلى وتدمجه مع أحد العلوم الأخرى.

وهذه العودة تتطلب:

١) ليس فقط رد الكثافة الايديولوجية إلى عمل خداع

٢) بل أيضاً عدم الوقوع في الالتباسات التي تجرنا إليها بعض التعاليم غير العلمية بشكل قاطع.

٣) ننتهي بعمل نقضي تاريخي/ نظري لتعيين وتحديد العلاقة المعرفية/العلمية بين مفاهيم فرويد ومضمونها.

"ولاكّان" حقق هذه الشروط في عودته إلى فرويد، وهذا السّبب جعل التوسير يتبنى نتائجه ويدافع عنها كقراءة صحيحة لفرويد.

إنّ هذه الشّروط المنهجية ترينا انّ الاختلاف بين التوسير وبوليتزر في العودة إلى فرويد لا تعود إلى الفارق الزمني بينهما ولكنّها تعود إلى اختلاف في نمط التفكير عند كل منهما وهذا ما سيظهر معنا لاحقاً.

ثانياً: قضية ولادة العلم

إنّ التّحليل النّفسي الفرويدي قد أوجد تحديداً جديداً للواقعية النّفسية. ولكن بوليتزر يرى أنّ فرويد يفسّر هذه الواقعة، بالرغم من جدة تحديدها، بلغة علم النّفس التقليدي. فدراسة الحالات الفردية في الممارسة التحليلية التي أوصلت فرويد إلى الرّبط بين الحلم والاختبار الفردي العيني، بحيث يبقى "الأنا" موجوداً دائماً وفي كل حالات الفرد، جعل عمله قائماً على الاستقراء العيني الذي يجب أن يؤدّي إلى علم صحيح. لكن فرويد، في نظر بوليتزر، لم يخلص دائماً لهذا العلم، وعدم الإخلاص هذا يعود إلى تداخل التفسيرات التقليدية مع الاكتشافات الجديدة. إنّ هذه الملاحظة، التي هي، في الواقع، صحيحة، توقّفت عند حدود الملاحظة التجريبية عند بوليتزر، بينما نراها عند التوسير تتخطّى هذه الحدود لتجد مشروعيتها العلمية داخل إطار، ما سمّاه التوسير، قضية "ولادة علم جديد". فهذه القضية تطرح ضرورة وجود "الأب" لكل خلق جديد مادياً كان أو فكرياً. يعني أنّه من الضروري أن نجد سلفاً لكل اكتشاف علمي جديد تماماً كضرورة ايجاب أبٍ لكل مولود جديد. هذا النمط من التفكير يرينا أنّ فرويد لم يكن له أب على الصّعيد العلمي، فكان أباً لذاته، ولهذا السّبب عاش في عزلة "وحدة نظرية" (solitude théorique)، ممّا دفعه، بالضرورة، إلى استعارة مفاهيم قائمة في عصره وفي علوم أخرى، لبناء علمه الجديد، فأتت هذه المفاهيم غير مطابقة كليّاً لمضمونها الذي هو الممارسة التحليلية. فهل إن هذا الواقع يعدّ فشلاً أو سقوطاً في علم النّفس التقليدي كما فهمه بوليتزر؟ إنّ هذا الواقع الذي توقّف عنده بوليتزر قد وجد عند التوسير تفسيراً لطبيعة العلم أيّاً كان هذا العلم. فالعلم، بنظر هذا الأخير، لا يأتي دفعة واحدة، فهو يمرّ بمراحل قبل أن يتثبت كعلم جديد. وما حدث لفرويد هو بالضبط ما حدث لماركس الذي استعان، في بداية اكتشافاته، بالمفاهيم الهيغلية السائدة. ثمّ تخلّص منها لاحقاً. وذلك يعود إلى أنّ "شباب العلم هو سن نضوجه" وليس بدايته؛ فهو دائماً هرم في بدايته، لأنّه يظهر ضمن مفاهيم سائدة هي مفاهيم ابائه الهرمين. من هنا تصبح العودة إلى فرويد هي، علمياً، العودة إلى مرحلة النّضج في نظريّته وليس إلى بدايتها.

ولكنّ السّؤال الذي يطرحه التوسير ولم يطرحه بوليتزر هو هل أنّ التّحليل النّفسي استمرّ في مرحلة النّضج هذه؟ إنّ هذا العلم لم يستمرّ على مستوى علميته بعد فرويد فالتحريفية جرته إلى الالتحاق بعلوم

أخرى حيث فقد الكثير من ذاته بفقدانه موضوعه الخاص. فهذا الانحراف الذي وجده بوليتزر في عمل فرويد بالذات، وجده التوسير في الذين أتعوا بعد فرويد. وهنا يتدخّل "لاكان" ليردّ للتّحليل النّفسي اعتباره وعلميته، التي من غير الممكن رفضها، وذلك بربطه هذه العلمية بموضوع التحليل النفسي الذي هو "اللاّوعي".

ثالثاً: التّحليل النفسي بين العلمية والتجريد

يقول التوسير أنّ عمل لاكان يقوم "على اعطاء اكتشافات فرويد مفاهيم نظرية على قياسها، وذلك عبر تحديد دقيق للاّوعي ولقوانينه. **فهذا اللاّوعي** الذي هو أحد معلولات "سيرورة- الانسان" في مرحلة تحوله من كائن بيولوجي إلى ذات فرد وحيث أنّ الصّراع، ففي هذه المرحلة، يدخل في النسيان، مع الاحتفاظ بفاعليته في حالة الكمون، هو موضوع التّحليل النّفسي، وبالتالي هو موضوع خاص، لا يستطيع أي علم آخر أن يدعيه له. وهذا الموضوع، الخاص يعطي للتحليل النفسي الحق الجذري بخصوصيّة مفاهيمه المطابقة لخصوصيّة موضوعه: اللاّوعي ومعلولاته. وهنا يقرّر لاكان أنّ فرويد أسّس علماً جديداً.

وألتوسير الذي يحدّد العلم بأنّه نظريّة تابعة، إنّها اللّحظة التي فيها تتحوّل النّظرية إلى منهج (تقنية) حيث تتصّل نظرياً (معرفة) أو ممارسة (علاج) بموضوعها الخاص (اللاّوعي). فحين يقول فرويد أنّه بنى نظرية، "فهذا يعني أنّ التقنية أو الممارسة، حتى ولو كانت خصبة، لا تستحق أن تسمّى علمية إلاّ إذا أعطتها نظرية مبنية بدقّة، الحق". وهنا يقع عمل لاكّان في البحث عن النظرية في التحليل النفسي. إنّ هذا البحث النّظري عن علمية التحليل النفسي، يقابله عند بوليتزر نمط آخر، قائم على المقارنة، حيث يظهر من خلالها هبوط فرويد في التجريد التقليدي الذي يبعده عن العلم. والبحثان هما حول موضوع واحد وهو اللاّوعي. يعود بوليتزر إلى علم النفس التقليدي فيجد أنّه مبني على مسلمة عامة هي "تعاهدية الدّلالة"، مّما يؤدّي إلى الواقعية ويفتح باب التجريد والصورية- أمّا التّحليل النفسي، فهو تقنية تسمح بتعميق الدلالات وفقاً لشروط علم النفس العيني. والدلالات، وفقاً لبوليتزر، هي بشكل رسم هرمي، قاعدته تحتوي الدلالات التعاهدية أي التي تعود لكل الناس، وقمته تحتوي الدلالات الفردية التي تعود للفرد فقط. فيصبح إذن، هم علم النفس العيني، التوصّل إلى هذه القمة الفردية. ولكن طريقة التحليل النفسي القائمة على "الترابط الحر"، قد جرَّت فرويد بعيداً، لأنّ آلية الترابط الحر تظهر "سيرورة عامة" وليست فردية. وبالتالي فإنّ هذه السيرورة العامة جعلت فرويد يبني "الشخصي" على ما هو "غير شخصي". هذا من ناحية، أمّا من ناحية ثانية، وهي الأهم، فيرى بوليتزر، أنّ اللاّوعي الذي به، كموضوع حددت علمية التحليل النفسي عند

ألتوسير/ لاكان، هو بالضبط ما يدخل التجريد التقليدي في علم النفس القديم، إلى التحليل النفسي، الذي من المفروض عليه أن يكون عينياً. وشرح بوليتزر لهذه الناحية هو التالي: "إنّ فرضية اللاّوعي تعني أن الفرد يعرف أكثر ممّا يعتقد أنّه يعرف"، وهذا ما يفسّره الحلم في مضمونه العيني ومضمونه الكامن عند فرويد. و"لكن هذا الجهل عند الفرد ليس برهاناً على اللاّوعي إلاّ إذا اتّخذ من الوجهة الواقعية اللاّوعي" تولده لأنّها تفصل بين القول الدال ونسخته الأنطولوجية" ولهذا السّبب يصبح لفظ "اللاّوعي ترجمة لواقع اعتبار وجود كائنات نفسية وهمية. وإن مسلمة اللّوعي "تعني جوهرياً انطلاقنا من مبدأ أننا لا نستطيع أن نعيش أكثر مما نفكر، أو أن كل سلوك يفترض قصاً (Récit) مطابقاً له، منه يتحرّك. لهذا السبب فحين يكون السلوك أكثر ممّا يدل عليه القص المرافق له، نُسقط في اللاّوعي ما ينقص القص يكون كي يكون متطابقاً مع السلوك... وهنا تظهر النزعة الفكرية القائلة بأسبقية التصور العقلي على الفعل" (ص ١٨٩).

هكذا يستنتج بوليتزر أنّ الاّوعي لا ينفصل عن علم النفس التجريدي وهذا يدلّ على نقوصٍ في التحليل النفسي، حيث أنّه يتخلّى عن "العينية" ويعود إلى الأساليب الكلاسيكية: "فاللاّوعي ليس إلاّ أسلوب إنقاذ "الشيء لذاته" (La pour soi) (ص ٢٠٨). وهذا ما يجعل فرويد تجريدياً في نظريته وعينياً في اكتشافاته. وهنا يأتي ردّ التوسير الذي يعتبر التجريد من مقومات علمية العلم: "فالنظرية التحليلية تعطينا ما به ينبني كلّ علم كعلم، وهو تحديد الماهية الصورية لموضوعه كشرط لإمكانية كل تطبيق عملي وممارسي على موضوعاته العينية ذاتها... ففي الحقيقة لا يستطيع أي علم أن يتخلّى عن التجريد حتى ولو كان في ممارسته لا يتعامل إلاّ مع تنوّعات فردية ووحيدة، والتي هي الدرامات الفردية" (Les drames individuels). فتجريدات التحليل النفسي هي، عند ألتوسير، المفاهيم العلمية الأصلية لموضوعاتها لأنّها "تحتوي مؤشّر، مدى وأسس ضرورة تجريديتها، يعني مدى علاقتها بالعيني في علاقتها الخاصة بعينية ممارستها التي هي الممارسة التحليلية (العلاج La cure)".

وهذا الاختلاف بين بوليتزر وألتوسير يعود إلى تحديد العلم عند كل منهما كما سنرى لاحقاً.

رابعاً: القص واللّغة

انطلاقاً من اللاّوعي، يتوصّل كل من بوليتزر وألتوسير/لاكان إلى مفاهيم مختلفة. ففي دراسته للحلم عند فرويد، يتوصّل بوليتزر إلى العملية الاستبدالية التي قام بها فرويد بين الاستبطان والقص. لقد رفض هذا الأخير الاستبطان ووضع محلّه القص وهذا يعني، بنظر بوليتزر، أنّ هذه العملية ليست فقط استبدال وجهة النظر التجريدية بوجهة نظر عينية، بل أكثر من ذلك، فهي تعني تركيز الموضوعية أي "أنّ فرويد

باستعماله طريقة القص قد استبدل الحدس بالسلوك" (ص ٩١). فالقص الثاني في الاستبطان يتّجه نحو التحقيق، بينما هو في التحليل النفسي يتّجه نحو التفسير والتأويل. وما يعطّل فاعلية هذا الاستبدال الفرويدي، هو تدخّل فرضية اللاّوعي كما رأينا سابقاً. ولكنّه، بحدّ ذاته، يُعتبر تطوّراً نحو العينية التي يركز عليها بوليتزر، في كل دراسته، والعينية تعني، عنده، العلمية.

ولكن ما رآه بوليتزر تجديداً في التحليل النفسي، على هذا الصّعيد، قد تناوله التوسير من ناحية تختلف جذرياً عمّا هي عليه عنده. فما سمي "قصاً" عند بوليتزر أصبح "لغة" (Langage) عند ألتوسير لأن "فرويد قال بأن كل شيء يتعلّق باللّغة". وهذا ما برهن عليه لاكان حين بيّن أن "قول اللاّوعي يتشكّل كلغة"، حيث اكتشف أنّ الإزاحة (déplacement) والتكثيف (condensation) كأوليات في اللاّوعي، ليسا إلاّ المجاز المرسل (métonymie) والاستعارة (métaphore) في اللّسانية. من هنا تصبح الهفوات والرّموز... عناصر من الحلم ذاته : دلالات، تدخل في منظومة القول اللّفظي (verbal) للفرد. وهذا يدخلنا في حقل "المنظومة الدالة" الذي هو حقل واحد للقول المزدوج، اللاّوعي واللّفظي. إنّ هذا الشرح الذي يدخل اللاّوعي في منظومة دالة واحدة مع القول اللّفظي، وبالتالي يظهر أهمية اكتشاف اللاّوعي عند فرويد وجعله كموضوع المحدد لعلمية نظريته، كان من غير الممكن أن يكتشفه بوليتزر. وهذا يعود إلى اكتشافات "سوسو" التي شكلت خللاً في توازن الأدوات النظرية عند كل من بوليتزر وألوتسير لاكّان ولهذا السّبب نكتفي عند هذا الحد في هذه النقطة لأنّه سيكون لهذه الأدوات دور في النقطة التالية.

خامساً: حول شرح "جديد" التحليل النفسي

عند هذا الحد، يتوقّف بوليتزر عن نقض التحليل النفسي ليتحول إلى مدافع عن إيجابياته، فيبدو له أن فرويد، يشكّل، في التطوّر الذي يؤدّي إلى الموقف العيني، "مرحلة ضرورية"، هي مرحلة التّخلّص من علم النفس القديم وإرساء قواعد علم النفس العيني؛ فما هي هذه النقاط التي تحدّد هذه العملية الانتقالية؟

إنّ هذه النقاط تدور حول مفهوم اللاّوعي الذي، كما رأينا سابقاً، أوقع التحليل النفسي الكلاسيكية التجريدية. إنّ للاّوعي، بنظر بوليتزر، معنى يجعل النظرية التي تتبناه، تتخطّى معناها الدغماتي، لأنّ "ما يميّز جوهرياً" اللاّوعي، بوجه عام، وباستقلال، حتى عن نظرية فرويد، هو أنّه يعود إلى وقائع نفسية لا يعرفها الفرد مباشرة... وهذا يعني أنّ إدخال اللاّوعي قد حدد النهاية لهيمنة الاستبطان... وجعلنا نقبل بوجود مجموعة من الواقعات النفسية لا تشكّل معطيات "لذاتها" (ص ٢٢٠). وهذه الواقعات توجب، بالتالي، في نظر بوليتزر، العودة إلى طرق غير طريقة الاستبطان لاكتشافها. وإدخال اللاّوعي، الذي لم نعد

نستطيع بعده، تحديد الواقعة على الصّعيد النفسي ذاته. فالموقف الذي هو أساس فرضية اللاّوعي يحتوي، إذن، نفي "الواقعية النفسية"، "ولو كان تطوّر التحليل النفسي متّسقاً لكان أدّى إلى البحث عن تحديد للواقعة النفسية تنفي الواقعية نهائياّ". ولكن بوليتزر يرى أن الواقعية تدخلت لتمنع نفي ذاتها. وهذا الشرح، يفقد التحليل النفسي حدّة ثوريته التي وصفها بوليتزر بأنّها شبيهة بالثورة التي أحدثتها اكتشافات كوبرنيك.

ولكن هذا الفشل في تطوّر التحليل النفسي لم يكن سلبياً بشكل قاطع، لأنّه أفرز، كما يقول بوليتزر، معاني جديدة تدخل في صلب علم النفس العيني. وهذه المفاهيم/ المعاني هي: التماهي (identification) وعقدة أوديب (complexe d'oedipe). فالتماهي منحوت في "الدراما" الإنسانية، إنّه جزء من حياة الذات الخاصة. وعقدة أوديب هي "رسم درامي" (Schémas dramatique) ... سلوك إنساني. فالاثنان معانٍ أولية يجب أن تساهم في تحليل وتشكيل الدراما الإنسانية، لأنّهما معانٍ تفسيريّة، أي عناصر من "رسم بصيغة المتكلّم" أي "الأنا" (ص ٢٣٠ إلى ٢٣٥).

إنّ ما رآه بوليتزر إيجابياً عند فرويد، نجده أيضاً عند لاكان، كما يقرأه التوسير، ولكن مع اختلاف أساسي في المنطلقات وفي التفسير. فما هو معانٍ جامدة عند الأوّل يصبح حركة انتقال في تاريخ الفرد، عند الثاني؛ ومفهوم اللّغة هو الذي ساعد في هذه الرؤية الجديدة. فالانتقال، في العلاج، (La cure) من "الكلمة الفارغة" إلى "الكلمة الممتلئة"، كما يقول لاكان، يتمّ بواسطة قانون النظام أو ما يسمّيه التوسير "قانون الثقافة" وهذا القانون يتوحّد صورياً مع نظام اللّغة. أمّا حركة هذا الانتقال فتتمحور حول زمنين متتاليين: زمن التخيلي (l'imaginaire) أي مرحلة ما قبل الأوديب والتي توازي مرحلة التماهي عند بوليتزر، وزمن الرّمزية (Le symbolique) والذي هو مرحلة عقدة أوديب وحلها. ولكن هذين الزّمنين يسيرهما قانون واحد، قانون الرمزية، لأنّ جدلية النظام الرمزي الذي تمثله الأم في علاقتها مع الطفل في هذه المرحلة.

وهنا يظهر لاكان فاعلية "نظام القانون" الذي "ينتظر كل مولود جديد ليحدّد له موقعه ومصيره". فهنا يبدأ، حتى وإن لم يكن الأب موجوداً فعلياً، الوجود الفعلي للأب (الذي هو القانون)، يعني وجود "نظام الدال الإنساني" أو "قانون الثقافة".

فمن هذا التحليل، يصبح اللاّوعي، في كل كائن بشري، المكان الذي فيه يبحث قول الفرد عن حيزه الخاص، "يبحث ويخطئ وبتعثّره يجد حيّزه الخاص، وذلك بواسطة أوالية تقوم على الفرض والتواطؤ وبالنهاية التخلي عن مفاتن التخيلي". ولهذا السّبب فكل أوالية الأوديب تدور حول القضيب (Le Phallus)

أو مفهوم الأب. وهنا يقرر التوسير أنّ كل جدلية الانتقال هذه مختومة بخاتم "النظام الإنساني" أي بخاتم الرّمزية، الذي "تعطينا اللّسانية قوانينه الصورية، يعني مفاهيمه الصورية". فما هو، إذن، رسم درامي عند بوليتزر يصبح **آلة مسرحية** عند لاكان **وبنية درامية** عند التوسير. وإنّ هذه الآلة/ البنية، مفروضة بواسطة الثقافة على كل فرد. ولهذا السّبب فالانتقال (أي الأوديب) يتأثّر، رغم كل تنوعاته، بقانون هذه الآلة/ البنية للتوصّل إلى الرّمزية تحت سيطرة قانون الرمزية ذاته. وهذا ما يميّز بين النّظريتين، فما هو مشاهد أو مراقب من الخارج فقط في تحليل بوليتزر، يصبح الفاعل (acteur) في تحليل التوسير/لاكان.

سادساً: حول تحديد العلم

حول هذه النقطة تتوضّح لنا كل الاختلافات السابقة لأنّها تظهر لنا الاختلاف الأساسي بين التوسير وبوليتزر، وهو اختلاف يجر، بالضرورة، إلى اختلاف في النظر إلى الواقع أيّاً كان هذا الواقع أو إلى الإنتاج العلمي أياً كان هذا الإنتاج. فبوليتزر يحدّد شروط وجود علم النفس "الوضعي". وإذا تتبعنا سيرورة فكره، نرى أن كلمة "وضعي" هنا يقصد بها "العيني" وبالتالي العلمي. هذه الشروط هي:

١) يجب أن يكون علم النفس علماً بَعدياً (A posteriori)، يعني مطابقاً لمجموعة من الوقائع.

٢) يجب أن تكون أصيلاً، يعني أن يدرس وقائع لا يمكن أن تعود، قطعاً، إلى موضوعات علم آخر.

٣) يجب أن يكون موضوعياً، يعني، يجب أن يحدّد الواقعة النّفسية والمنهجية بطريقة تفرض حق كونيتهما وأن تكونا سهلتي البلوغ والتحقق منهما (ص ٢٤٢).

ألا نلاحظ ضمن هذا التحديد أن بوليتزر يقع في التجريبية التي تحاربها المادية الجدلية لأنّها تصبّ في نهاية التحليل في المثالية، رغم إدّعائه المادية الجدلية؟

أمّا ألتوسير، فيسلك اتجاهاً آخر ينسجم مع منهجه المادي الجدلي، فيقول أن فرويد، هذا "الموضوع" هو بالنسبة لنا.

١) ممارسة (علاج تحليلي).

٢) تقنية (منهجية العلاج).

٣) **نظرية** في علاقة بالممارسة والتقنية.

وهذا ما يشكّل في نظر التوسير بنية العلم صورياً. ولكن سياق دراسته قد دلنا أنّ هذا الشكل لم يبقَ صورياً بل أصبح، بالفعل، علمياً. من هنا تصبح نظرية فرويد نظرية علمية، بعكس ما بينه لنا بوليتزر، حيث أن النظرية الفرويدية هي غير علمية لأنّه تجريديّة كما رأينا. هل هناك علم بدون تجريد؟

سابعاً: حول النتائج

إنّ الاختلاف في سياق ومحتوى الدراستين حول التحليل النفسي، أدّى إلى اختلاف في النتائج عند كل من التوسير/لاكان وبوليتزر وهو اختلاف يفاجئنا نوعاً ما: فالدراسة التي قالت بلا علمية التحليل النفسي تتوصّل إلى نتائج متفائلة حيث ان "ما بعد علم النّفس (métapsychologie) قد عاش زمنه وأتى بدء تاريخ علم النفس، (ص ٢٦٢)، بينما الدّراسة الثانية التي أثبتت علمية التحليل النفسي الفرويدي تنتهي بعرض يائس لنتائجه. ففرويد قد "كشف لنا أنّ الذات الإنسانية غير مركّزة وهي مؤلّفة من بنية هي أيضاً لا مركز لها إلاّ في اللاّمعرفة التخليلية للأنا"، يعني في التشكيلات الإيديولوجية التي فيها يتعرّف "الأنا" على ذاته. ولكن هذا القول ينتهي ملتقياً بقول بوليتزر، رغم المسافة الفاصلة بينهما، حيث أن نهاية قول هذا الأخير هي نقطة انطلاق قول التوسير. فبوليتزر يتفاءل بإمكانية بناء علم النفس كعلم على انقاض لا علمية التحليل النفسي، بينما التوسير ينطلق مما كان إمكاناً فقط عند بوليتزر، وينتقل إلى مرحلة جديدة تشكل تصوّر الإمكان عنده، حيث ان ما أظهره التحليل النفسي قد يفتح السّبل التي تمكّننا، يوماً ما، من فهم أفضل لبنية اللاّمعرفة، وهي تهم، بالدرجة الأولى، كل بحث حول الإيديولوجيا.

ربّما كانت دراسة باشلار "التحليل النفسي للنار" (La psychanalyse du Feu) بداية هذا الفهم. ولكن هذا يتطلّب دراسة ثانية تختلف كليّاً عن روحية هذه الدّراسة.

ولهذا نكتفي بعرض بيانَين للنتائج السّابقة:

التوسير/لاكان	**بوليتزر**
١- عودة إلى فرويد من خلال شروط علمية تحدد مسار العودة.	١- عودة إلى فرويد انطلاقاً من علم النفس التقليدي.
٢- نظرة علمية جدلية إلى ولادة العلم.	٢- نظرة تجريبية ميكانيكية إلى ولادة العلم.
٣- التحليل النفسي دخل العلمية بواسطة التجريد.	٣- التحليل النفسي خرج عن العلمية بسبب التجريد.
٤- كل شيء يتعلّق باللّغة.	٤- استبدال الاستبطان بالقص.

٥- جديد التّحليل النفسي.
أ) الانتقال من التخيلي إلى الرمزية.
ب) عقدة أوديب.
- بنية درامية/ ألتوسير.
- آلة مسرحية/ لاكان.

٦- تحديد العلم يصب في المادية الجدلية.

٧- بناء التطلّع المستقبلي على نجاح التحليل النفسي علمياً.

٥- جديد التحليل النفسي:
أ) توحّد الذات.
- عقدة أوديب
ب) عقدة أوديب رسم درامي.

٦- تحديد العلم يصب في التجريبية.

٧- بناء التطلع المستقبلي على إخفاق التحليل النّفسي.